مصادر القصص الإسلامية

- ٣ -

الخاتمة

أمّا كعب الأحبار فلا يقلّ درجةً أو منزلة عند القصاص المسلمين عن وهب نفسه . يستعين به القصّاص والكتّاب بصورة غير محدودة في رواياتهم . وليس ببعيد أن تكون شخصيّة (كعب الأخبار) عند عامّة الناس اليوم هي تحريف عن اسم (كعب الأحبار) وهي ترمز إلى إنسانٍ مولعٍ بنقل الأخبار عالم بها ، تجد عنده كلّ ماتطلبه .

كعب الأحبار معاصر لوهب بن منبه يتصل اسمه باسمه ، وهو أيضاً من يهود اليمن الذين أسلموا ، وما يقال في أحدهما يغلب أن يقال في الآخر ، وإن كانت صلة كعب باليهودية أبرز من صلة وهب بن منبّه ، لأنّ الأخير قد روى قصصاً ذات أصول فارسيّة إضافة إلى قصص الأنبياء .

والروايات تجعل كعباً يحكي قصصاً لعمر بن الخطاب لعلّها هي من قصص الأنبياء ، يقول كعب عنها بأنه قرأها في (كتب الأنبياء)[1] ، وإن عمر ابن الخطّاب حين أراد الشخوص إلى العراق سأل كعباً عن العراق، فقال كعب :

« يا أمير المؤمنين إنّ الله لما خلق الأشياء ألحق كلّ شيء بشيء ، فقال العقل : أنا لاحق بالعراق ، فقال العلم : وأنا معك ، فقال المال : وأنا لاحق بالشام فقالت الفتن وأنا معك . فقال الخصب : وأنا لاحق بمصر فقال الذل

---

(١) الأصفهاني : حلية الأولياء ج ٥ ص ٣٩١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأنا معك . فقال الفقر وأنا لاحق بالحجاز فقالت القناعة وأنا معك ، فقال الشقاء : وأنا لاحق بالبوادي فقالت الصحّة وأنا معك »(١) .

إن روايات كهذه تلخص لنا شيئاً من مظاهر الحياة العامة في الأمصار في العصور التالية ، لا في وقت عمر بن الخطاب .

ولعلّ العلاقة الوثيقة التي تظهرها المصادر بين عمر وكعب كان سببها هو إسلام كعب في خلافة عمر واتصاله به وبمجالسه ، فقد قيل إن كعباً كان يعظ عمر فكان عمر يقول له « خوّفنا » فيبدأ كعب بوصف عذاب الآخرة مفصّلاً ، ثم يقول له بشّرنا فيبدأ كعب بذكر سعة رحمة الله .. الخ(٢) .

إن الروايات تشير بصراحة إلى أن كعباً كان يستعين بالتوراة على تفسير القرآن ، وأنه كان يعتمد اعتماداً ظاهراً — لا على كتب الأنبياء وقصصهم وحسب بل على التوراة نفسها . بل تنسب الروايات إليه موازنات بين القرآن والتوراة ، وكان يعيّن بداية التوراة بالآيات القرآنية ، إذ يقول في الآية القرآنية (قل تعالَوْا أتلُ ما حرم ربكم عليكم) . « والذي نفس كعب بيده : إنها لأوّل شيء نزلت في التوراة »(٣) . وقال في موضع آخر فاتحة التوراة فاتحة الأنعام ، وخاتمة التوراة خاتمة سورة هود »(٤) . وان موسى رغب إلى الله أن يجعل له آيات ، لكن الله جعلها لأمّة محمد دونه ، ويستشهد كعب على هذا بآيات ترد في القرآن(٥) .

---

(١) المسعودي : مروج (١٩٥٨) ج ٢ ص ٦٤ — ٦٥ — هناك ذكر لهذه الرؤيا في التوراة نفسها لكن شتان بينها وبين هذه الصورة التي ترسمها القصص ، فقد جاءت هناك بأسلوب ركيك لا جمال فيه .

(٢) حلية . ج ٥ ص ٣٦٨ — ٣٦٩ .

(٣) حلية الأولياء ج ٥ ص ٣٨٣ .

(٤) المصدر نفسه ص ٣٧٨ .

(٥) المصدر نفسه ص ٣٨٥ — ٣٨٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولعلّ التفاصيل التي توردها المصادر الإسلاميّة المتأخرة ، لم تكن الروايات المتقدمة على علم بها . ومع ذلك فقد ساور الشكّ كتّاباً مسلمين متقدمين في العصر ، مع العلم أنّ المادّة المنسوبة إلى هؤلاء القصّاص لم تكن في أوّل الأمر بهذه الضخامة . فالجاحظ من أسبق الكتّاب المسلمين إلى الشكّ فيما نسب إلى كعب من علوم التوراة والكتب القديمة ، إذ يقول :

« وأنا أظن أن كثيراً مما يحكى عن كعب أنه قال : مكتوب في التوراة إنه إنما قال نجد في الكتب وهو إنما يعين كتب الأنبياء والذي يتوارثونه من كتب سليمان وما في كتبهم مثل كتاب أشعياء وغيره .

والذين يروون عنه في صفة عمر بن الخطاب (رض) وأشباه ذلك فإن كانوا صدقوا عليه وكان الشيخ لايصنعُ الأخبار فما كان وجه كلامه عندنا إلاّ على ماقلت لك » (١) .

وقد تبلغ الروايات المنسوبة إلى كعب حدّاً من السذاجة لايلتفت معه الكاتب إلى ما يرويه منها ، فقد روي عن كعب ، والرواية جاءت في تفصيل الإسلام والقرآن ـ أنه قال :

« عليكم بالقرآن فإنه فهم العقل ونور الحكمة وينابيع العلم وأحدث الكتب عهداً بالرحمن » (٢) (كذا !) .

وانظر في الرواية التالية وفي مدى سذاجتها ، وكأنّ الإقناع بالرواية لايتأتى إلاّ عن طريق المبالغة في بعض جوانبها :

« تلا رجلٌ عند عمر هذه الآية (كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب) قال ، فقال عمر : أعدها عليّ ، وثمّ كعب ، فقال : يا أمير المؤمنين : أما إنّ عندي تفسير هذه الآية ، قرأتها قبل الإسلام قال

(١) الجاحظ . الحيوان ج ٤ ص ٢٠٢ .
(٢) حلية . ج ٥ ص ٣٧٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فقال هاتها يا كعب ، فإن جئت بها كما سمعتُ من رسول الله ﷺ صدقناك ، وإلاّ لم ننظر فيها ، فقال إني قرأتها قبل الإسلام : كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها في الساعة الواحدة عشرين ومائة مرة . فقال عمر : هكذا سمعتها من رسول الله ﷺ .. (١) .

وهناك ملامح شبه كثيرة بين ما ينسب إلى كعب الأحبار في أوصاف عذاب القبر وماينسب من هذه الأوصاف نفسها إلى قاص آخر هو تميم الداري الذي يعتبر عند المسلمين أول من قصّ بعد الإسلام (٢) .

ويبدو أن المؤيدين للتصوف في الإسلام قد اتخذوا من كعب ورواياته طريقاً للحديث عن مذهبهم وتفضيله ، كما فعل أهل السنّة والمعترضون على القدرية بالروايات المنسوبة إلى وهب . فهذا أبو نعيم الأصفهاني يروي على لسان كعب الأحبار قوله :

« إني لأجدُ نعت قوم يكونون في هذه الأمّة بمنزلة الرهبانية ، قلوبهم على نور ، تنطق ألسنتهم بنور الحكمة تعجب الملائكة من اجتهادهم واتصالهم بمحبّة الله . قيل ياأبا إسحاق من هم ؟

قال : قوم جوّعوا أنفسهم لله وظمؤوها ، ينادي يوم القيامة ألا ليقم أهل الجوع والظمأ فيلتقطون من بين الصفوف ، فيؤتى بهم إلى مائدة منصوبة لم تر العيون ولم تسمع الآذان بمثلها ، فيجلسون عليها والناس في الحساب (٣) .

أمّا في إسلام كعب فقد رويت قصّة طريفة تذكّرنا بتلك القصة التي ترويها المصادر عن إسلام تميم الداري — وقد كان تميم نصرانياً فأسلم (٤)

(١) حلية الأولياء ج ٥ ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥ .

(٢) المصدر نفسه ج ٦ ص ١٠ وما بعدها ، وابن عساكر : تاريخ (١٣٣١) ج ٣ ص ٣٤٨ ـ ٣٥٠ .

(٣) حلية الأولياء : ج ٥ ص ٣٨١ .

(٤) راجع مقالة (تميم الداري أول قاصّ في الإسلام) مجلة كلية الآداب ، بغداد سنة ١٩٦٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وذلك أن كعب الأحبار قد أسلم في خلافة عمر بن الخطاب ثم قدم على عمر فاستأذنه بعد ذلك في الغزو إلى الروم فأذن له ، فانتهى إلى راهب قد حبس نفسه في صومعةٍ أربعين سنة ، فناداه كعب فأشرف عليه الراهب فقال : من أنت ؟ . قال : أنا كعب الحبر ، قال : قد سمعت بك فما حاجتك ؟ قال : جئتُ أسألك عن حالك ، نشدتك بالله هل حبست نفسك في هذه الصومعة إلاّ لآية تجدها في التوراة ؟ ؛ إن أصحاب رؤوس الصوامع البيض هم خيار عباد الله عند الله يوم القيامة . قال : اللهم نعم . قال : فنشدتك بالله هل تجد في الآية التي تتلوها أنهم الشعث الغبر الذين أولادهم يتامى لغيبة آبائهم وليسوا يتامى ، ونساؤهم أيامى لغيبة أزواجهم ولسن بأيامى ، أزوِدتهم على عواتقهم تحملهم أرض ، وتضعُهم أخرى ، يجاهدون في سبيل الله ، هم خيار عباد الله ؟ قال اللهم نعم ، قال فإن هذه ليست تلك الصوامع إنما هي فساطيط أمة محمد عليه الصلاة والسلام يغزون في سبيل الله ، وليست هذه الصومعة التي حبست فيها نفسك ، فنزل إليه الراهب فأسلم ، وشهد معه شهادة وغزا معه الروم وانصرف إلى عمر ، فأعجب عمر باسلامها . فكانت الرهبانية بدعة منهم »[1] .

فهذا الحديث الذي يقرّب بين التصوف والرهبانية مع تفضيل الصوفية في الإسلام على رهبنة المسيحيّة يجد خير ملتجأ له في شخصيّة كعب الأحبار ، كما وجدت أحاديث شبيهة به ملتجأها في شخصيّة تميم الداري وان كان بشيء بسيط من الاختلاف في وضع الحديث ، إذ أن تميم الداري قد كان بالشام حين بعث رسول الله (ﷺ) ، فخرج حتى أدركه الليل ، وهو في جنب وادٍ ، ثم سمع منادياً يعلن ظهور الإسلام وينصحه بأن يسلم وعند

(١) حلية الأولياء ج ٦ ص ٦ – ٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الصباح يذهب تميم إلى دير فيسأل الراهب ويخبره بالخبر ، فيقول له الراهب : « قد صدقوك تجد يخرج من الحَرَم ، ومهاجرُه الحَرَمَ ، وهو آخر الأنبياء ، فلا تسبَق إليه »(١) .

فيأتي تميم ثم يسلم . ولا تكتفي الروايات بذلك حتى تلقبه بلقب راهب الأمّة ، على نمط هذه الراوية التي مرّت بنا .

فكأنّ هذه الروايات يتجاهل بعضها بعضاً ، فتنسب الى كلّ واحد من هؤلاء شخصية بارزة كان لها شأنها الوحيد في الإسلام ، ثم تعود إلى غيره فتنسب إليه ما نسبت إلى الآخر . فعلى حين تشير بعض الروايات إلى أن تميم الداري كان من أوائل من لقب أو عرف بالرهبانية في الإسلام وكان يلقّب براهب الأمّة (٢) وقد أسلم في أوّل الإسلام وعاصر النبي (ﷺ) ، تقول الرواية المنسوبة إلى كعب الأحبار إن عمر بن الخطـــاب أعجب بإسلام كعب والراهب الذي جاء معه « فكانت الرهبانية بدعة منهم » . وتجعل الروايات الخلفاء يستعينون بكعب — كما يستعينون بوهب — في شرح ما ورد في القرآن من أمور يختلف فيها المفسرون المسلمون أنفسهم ، كما فعل معاوية عند استشارته كعباً في ما جاء في القرآن من قوله تعالى « حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة .. » إذ اختلف فيها ابن عباس وعبد الله بن عمر فيسأل معاوية كعباً : « أين تجد الشمس تغرب في التوراة يا كعب ؟ » . فيفسّرها كعب ويأتي بشواهد شعرية على ما يقول (٣) .

وفي رواية أخرى يتهم معاوية كعباً في روايته ، إذ ينقل عنـد قوله

---

(١) المقريزي : ضوء الساري ص ١٧١ - ١٧٢ ، وبشيء من الاختلاف عند ابن عساكر : تاريخ ، ج ٣ ص ٣٥٥ - راجع مقالة (تميم الداري ..) المذكورة سابقاً .

(٢) المقالة نفسها .

(٣) ثعلبي : قصص الأنبياء ، ص ٢٧٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدّثون عن أهل الكتاب وإن كنّا مع ذلك لنبلو عليه الكذب .. »(١) .

كلّ هذا والروايات تقول إن كعباً توفّي في حدود سنة اثنتين وثلاثين ، أي في خلافة عثمان بن عفّان ، ومعنى هذا أنه لم يقصّ في خلافة معاوية . لكن الروايات تقول أيضاً انه كان يقصّ على الناس في خلافة معاوية ، وإنه سمع حديثاً نبوياً فيه تعريض بالقصّاص فامتنع عن القص حتى « أرسل اليه معاوية فأمره أن يقصّ .. »(٢) .

وهكذا نجد ، أينما نسير ، مجموعة من الروايات المتناقضة ، والمعلومات التي قلما تنسجم في مضمونها ، وان كانت تشكّل مادّة ضخمة في مجموعها .

وعلى أية حال من الأحوال فإنّ كلاً من وهب بن منبّه وكعب الأخبار وتميم الداري يمثل لنا عناصر غير إسلامية تسرّبت إلى المجتمع الإسلامي بواسطة القصص المنقول شفاهاً . وان هـــذا التسرّب كان يتمتع بحرّية واسعة ، وكان القصّاص ـ بوعي أو بغير وعي ـ يقومون بالدور الرئيسي في نشر هذه الروايات .

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ . فقـد قام ، إلى جانب هؤلاء الرواة الذين دخلوا في الإسلام ، رواةٌ إسلاميون كان للطبقة الأولى منهم صحبة مع النبي ﷺ ، واشتهر أكثرهم بالتفسير القرآني ، والعناية بالشعر والأدب والقصص ، كما عرفوا باطـلاعهم على مصـادر الديانات الأخرى . وأصبح هؤلاء مصدراً للقصّاص ، وجعـل منهم الرواة المتأخرون وسيلة لتوثيق

---

(١) البخاري : صحيح (سنة ١٩٣٨) ، ج ٢٥ ص ٨٥ (كتاب الاعتصام) .

(٢) ابن الجوزي : مخطوطة القصّاص والمذكّرين ، ورقة ٢٤ . وروايات تنقل عنه من عصر معاوية في : ابن سعد : الطبقات ، ج ٧ ص ٤٤٥ ، ابن قتيبة : المعارف ص ٤٣٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

رواياتهم التي ينقلونها عن الأمم الأخرى وإعطائها صبغة إسلامية كي يسيغها المجتمع الإسلامي .

ولقد تردد على ألسن الرواة في هذا الصدد أسماء لبعض هؤلاء ، نختار هنا أشهرهم ندرس من خلالهم هذا المصدر للرواية الشفوية . فقد كان كلّ من أبي بن كعب وابن عبّاس من القلائل الذين عنوا بالكتابة والقراءة من أوائل المسلمين . ورغم أن كتباً قد نسبت إلى كل منهما ، لكن المؤلفين المسلمين يعتمدون في النقل عنهما على الوسيلة الشفوية دون الإشارة إلى المصدر المكتوب .

* * *

أبيّ بن كعب من بني النجار ، وهم من الخزرج يتصل ذكره بالقرآن وقراءته . وقد عرف عنه أنه كان (أقرأ المسلمين) ، وأنّ النبي ﷺ قال عنه (أقرأ أمتي أبيّ بن كعب)(١) ، بل قيل انه كان يكتب في الجاهلية (٢) . وكان النبي ﷺ يقرأ عليه آيات من الوحي ويسأله فيها ، وأنه حين نزلت عليه (اقرأ باسم ربك الذي خلق) جاء إلى أبيّ بن كعب فقال له : إن جبريل أمرني أن آتيك حتى آخذها وتستظهرها فقال أبيّ بن كعب : يارسول الله سمّاني الله ؟ قال : نعم (٣)

لكن وجه الغرابة في هذه الرواية أن المصادر تشير إلى أنّ أبيّاً كان من الأنصار ، ومعنى هذا أنه لم يشهد النبي ﷺ حتى مابعد الهجرة إلى المدينة هذا مع العلم أن الآية المذكورة كانت من أوائل مانزل من القرآن في مكّة .

لقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن أبيّاً قد شهد العقبة (٤) لكن يغلب على ظني أن رواية ابن هشام في السيرة هي أقرب إلى الواقع ، لأن أبيّاً

(١) ابن سعد : ج ٢ ص ٣٤٠ .
(٢) المقدسي : البدء والتأريخ ج ٥ ص ١١٦ .
(٣) ابن سعد : ج ٢ ص ٣٤١ .
(٤) ابن الأثير : أسد الغابة (ط طهران) ج ١ ص ٤٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا يذكر في من بايع النبي ﷺ في العقبة الأولى أو قبلها (١) . ومن الجدير بالذكر أن شخصيّات من بني النجّار ، فيهم أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحارث ، كانوا ممّن شهد النبي ﷺ قبل العقبة الأولى ودعوا إلى الإسلام في المدينة . ويغلب على ظني أن أبيّاً لم يكن في سنٍ أو منزلةٍ تؤهله لأن يكون في أوائل من يذكر من شيوخ الأنصار أولئك لأنّ ترتيبه في النسب يأتي بعد هؤلاء بجيل ، ولتوضيح ذلك . أثبت التخطيط التالي :

مالك بن النجّار

(هو تيم اللاّت بن ثعلبه بن عمرو بن الخزرج) ـ هو الجدّ الأعلى لبني النجّار ـ (٢)

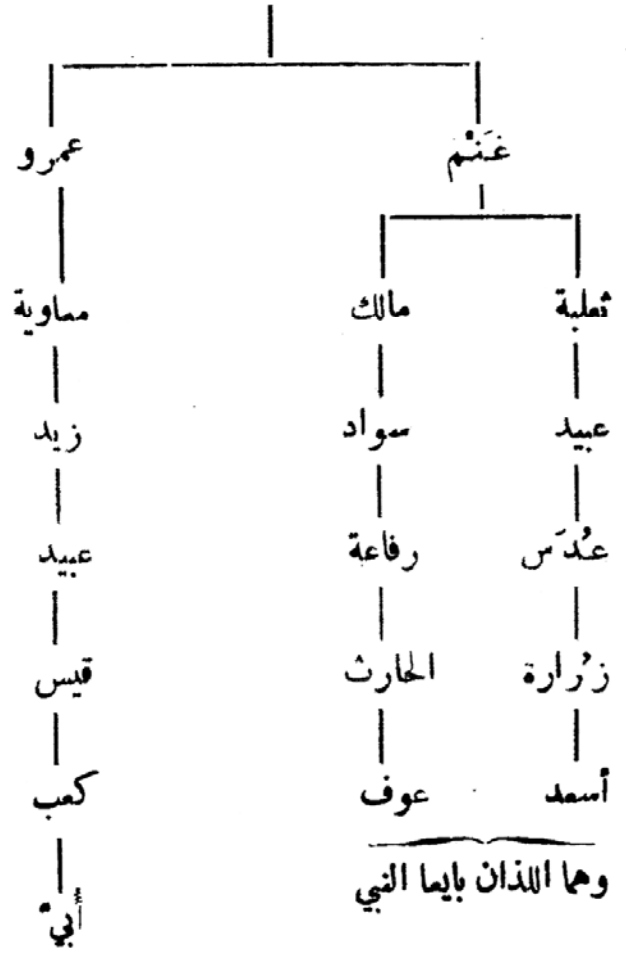

(١) السيرة النبوية (سنة ١٩٥٥) ج ١ ص ٤٢٨ ـ ٤٣٤ .
(٢) المصدر نفسه : ج ١ ص ٢٠ ـ ٢١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ورّبما أسلم أبيّ بعد الهجرة مباشرة ، وإن كانت الروايات لا تشير إلى زمن إسلامه لكننا نعلم أن النبي ﷺ آخى بينه وبين سعد بن زيد بن عمرو بن نفيـــل بعد الهجرة إلى المدينة . ويذكر أُبيّ من بين مَن شهد بدراً (١) .

ويعدّ أبيّ في حملة كتّاب النبي في المدينة وفي جملة من جمع القرآن الكريم على عهد النبي ﷺ حفظاً (٢) . ويشير ابن النديم في حملة المصاحف إلى مصحف أبي بن كعب (٣) . كما ذكرت قراءة أبي وخُصّ مصحفـــه بالذكر (٤) ولا ندري إن كان أبي قد جمعه كتابةً بنفسه ، فرواية ابن النديم لا تشير بصراحة إلى أنه هو الذي جمعه . يقول ابن النديم .

« قال الفضل بن شاذان أخبرنا الثقة من أصحابنا ، قال كان تأليف السور في قراءة أبي بن كعب بالبصرة في قرية يقال لها قرية الأنصـار على رأس فرسخين عند محمد بن عبد الملك الأنصاري . أخرج إلينا مصحفاً وقال هو مصحف أبي رويناه عن آبائنا ، فنظرت فيه فاستخرجت أوائل السور وخواتيم الرسل وعدد الآي . . » (٥) .

إلا أن المصادر الإسلامية لاتؤيد تأييداً قويّاً كون أبيّ قد دوّن القرآن بل كثيراً ما تشير إلى أن النبي ﷺ كان يأمره بحفظه ، ولعلّه ممن جمع القرآن على عهد النبي ﷺ حفظاً فقط .

---

(١) ابن الأثير ، وسيرة ابن هشام ج ١ ص ٥٠٤ (ط وستنفلد) .
(٢) انظر ابن الجوزي : المدهش في علوم القرآن والحديث .. (ط بغداد ١٣٤٨) ، ص ٤٣ .
(٣) ابن النديم : الفهرست (ط القاهرة) ص ٦١ .
(٤) الجاحظ : الحيوان (ط هرون) ج ١ ص ٣٣٦ ، المقريزي : المواعظ (القاهرة ـ ١٩١٠) ج ١ ص ٩٠ .
(٥) ابن النديم . نفسه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويرجّح الذهبي أن أبيّاً توفي في زمن عمر ، وأنه لو عاش في خلافة عثمان ، لكلّفه الأخير جمع القرآن في جملة من كلّفهم (١) ، وهذا يدلّ على أن أبي لم يذكر فيمن جمع القرآن .

وقد نسب ابن النديم إلى أُبيّ كتاباً في فضائل القرآن (٢) ، لا نعرف منه شيئاً .

وهكذا تنتقل أكثر الروايات المنسوبة إلى أبي بن كعب بالطريق الشفوي ، لا سيما تلك الروايات التي تتصل بالأنبياء والقصص والتأريخ القديم . ومن الجدير بالذكر أن أكثر القصص التي تنقلها مصادر التأريخ الإسلامي عن أبيّ بن كعب ، ترجع في أصلها إلى النبي (ﷺ) نفسه ، وكأن أبياً قد قام بنقلها عن النبي مباشرة (٣) . وهي قصص تصلح أن تكون منقولة عن مصادر القصص غير الإسلاميّة التي نقلها الرواة المسلمون . ولقد استعان رواة السيرة ـ كابن إسحاق ـ ورواة التأريخ والقصّة ـ كوهب بن منبّه ـ ببعض روايات أبيّ ـ كما يظهر في أسانيد الروايات المنقولة عنهم ـ .

وكان أُبيّ يفتي الناس في حياة النبي (ﷺ) (٤) . وله مع النبي أحاديث ترقى إلى مستوى المعجزات ، نجدها في المصادر المتأخرة خاصّة . فقد قيل إن أبيّ بن كعب قال يا رسول الله ما جزاء الحمّى ، قال : تجري الحسنات على صاحبها ما اختلج عليه قدم ، أو ضرب عليه عرق . قال أبيّ بن كعب :

---

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء عن المقدسي : البدء (Huart) ج ٥ ص ١١٦ .

(٢) ابن النديم : نفسه .

(٣) انظر روايات في : ابن الأثير : الكامل في التاريخ (١٣٤٨) ج ١ ص ٩٠ ، المقدسي : البدء (Huart) ج ٢ ص ٩٩ ـ ١٠٠ .

(٤) ابن الجوزي : المدهش ص ٤٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اللهمّ إني أسألك حمّى لا تمنعني خروجاً في سبيلك ، ولا خروجاً إلى بيتك ، ولا مسجد نبيّك ، قال : فلم يمسّ أُبيّ قط إلاّ وبه حمى (١) .

وتنسب إلى أُبيّ أمور نجدها منسوبة إلى تميم الداري ـ أوّل قاصّ عُرف في الإسلام ـ وتنسب إلى سليمان التجيبي أوّل قاصّ تمّ تعيينه في مصر من قبل الخليفة الأموي ؛ فقد وُصف هؤلاء جميعاً بولعهم بالعبادة حتّى كانوا يختمون القرآن في فترة وجيزة ، مرّات كثيرة . وفي هذا الصدد ، كانت الرواية المنسوبة إلى تميم أشدها مبالغة ، لأنه كان يقرأ القرآن كلّه في ركعة واحدة (٢) .

وتضفي كتب التصوف على هؤلاء الرواة المتقدمين طابع الزهد ، وتبالغ في وصفهم به ؛ وتنسب إليهم أحاديث فيها تنبؤ عن الأحداث التي حدثت في الإسلام بعدهم (٣) .

ومع ذلك فقد أشارت بعض الروايات إلى خشية أوائل المسلمين من بدعة القَصص واجتماع الناس إليه . وكان أبيّ بن كعب من أولئك الذين يجتمع الناس إليهم في مجلسهم بعد الصلاة ، ورغم ما يعرف به أبيّ من علم بالقرآن وقراءته وعلوم الأمم ، ورغم تلقيب عمر إياه بلقب (سيد المسلمين) ـ على ما تقول الروايات ـ (٤) إلاّ أننا لا نكاد نجد رواية واحدة تذكر استشارة عمر له في أمور القرآن رغم أن عمر (رض) كان يستشير كعب الأحبار ، ويعجب بقابليّات ابن عبّاس ـ رغم صغر سنّه ـ . كذلك تشير الروايات إلى أن تميم الداري قد قصّ في خلافة عمر (رض) وأنّ عمر

(١) الاصفهاني : حلية الأولياء ج ١ ص ٢٥٥ .
(٢) المقريزي : ضوء الساري ص ١٧٢ .
(٣) الأصفهاني : حلية ج ١ ص ٢٥٢ .
(٤) ابن الأثير : أسد الغابة ج ١ ص ٤٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قد شهد بعض خوارق تميم . لكن الروايات تتخذ موقفاً آخر من أبيّ ابن كعب في ذلك . فقد قيل بأنّ عمر (ر ض) نظر إلى أبيّ بن كعب وقد تبعه قوم فعلاه بالدرّة ، وقال : إنها فتنة للمتبوع ، ومذلّة للتابع (١) .

أمّا القصص التي تنقل عن أبي بن كعب ، فمدارها الأنبياء كآدم وموسى والخضر ، وأوصاف الجنّة والنار .. الخ . ويبدو أن المصادر الإسلامية المختلفة تتصرف في الروايات بما يلائم غايتها ؛ ومع ذلك لا تكاد تجد رواية واحدة تشير إلى المصدر الذى ينقل عنه أُبيّ قصصه ، لأن المصادر الإسلاميّة تضفي على قصصه طابع الوثوق بأن تنسبه ـ بواسطة أُبيّ ـ إلى النبي (ﷺ) نفسه .

ولقد ازدادت أهميّة هذا الصنف من الرواة المسلمين حينما نشطت حركة التدوين بصورة خاصّة . أمّا قبل نشاط هذه الحركة فقد كانت دائرة فعاليّة هؤلاء القصّاص تعتمد على المجالس في المساجد أو في مجالس الخلفاء . ولقد أظهر بعض الخلفاء الأمويين وولاتهم اهتماماً خاصاً بالقصص وبأخبار الأمم . فلو صدّقنا ماجاء في كتاب عبيد بن شرية بأنّه روى أخباره في مجلس معاوية ، وأن معاوية كان يسأل وعبيد يجيبه عن الأمم السالفة وأخبار اليمن وتاريخ ملوكها ... الخ لظهر لنا مدى اهتمام الخليفة بهذا النمط من القصّ والأخبار (٢) . بل يظهر هذا الاهتمام عند الولاة ، كما يظهر من المقابلة بين إياس بن معاوية وعمر بن هبيرة (٣) .

لكننا لا ندري ما هو نصيب أُبيّ بن كعب من ذلك . فالروايات تهمل جانباً كبيراً من حياته ، لا سيما الفترة التالية لحياة النبي ، إذ لا نكاد نسمع

---

(١) الراغب الأصفهاني : محاضرات (١٩٦١) ج ١ ص ١٣٣ .

(٢) كـ أخبار عبيد بن شرية (حيدر آباد سنة ١٣٤٧) مع كتاب التيجان ، ص ٣١٢ وانظر ابن النديم : المقالة الثالثة الخاصة بالإخباريين والنسابين من كتاب الفهرست .

(٣) ابن قتيبة : عيون الأخبار (تراثنا) ج ١ ص ١٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عنه إلاّ عن مجالسه في المدينة ، وبعض ما قاله فيه عمر (ر ض) ـ كما تقدّم ـ لكن يبدو لي أنّ أبياً ربما ارتحل إلى الشام وأنه توفي فيها ؛ لأنّ ابن بطوطة يذكر من بين مزارات دمشق قبريْ كلّ من أبيّ بن كعب وكعب الأحبار (١) .

* * *

ويأتي ابن عبّاس في درجة لا تقلّ في منزلتها عن درجة أبيّ بن كعب كمصدر شفوي من مصادر القصص الإسلاميّة .

وابن عبّاس ـ وهو عبد الله بن العبّاس بن عبد المطلب ـ ، ابن عمّ النبي (ﷺ) من الصحابة ، لكن تختلف الروايات في أمد صحبته للنبي (ﷺ) . فقد ولد ابن عبّاس وكان الإسلام قد ظهر وانتشر ، وأسلمت أمّه ـ وهي أمّ الفضل لبابة بنت الحارث الهلاليّة ، وهي أخت ميمونة بنت الحارث زوج النبي (ﷺ) ـ وقد أسلمت لبابة أم الفضل بعد خديجة من النساء ، فولد ابن عبّاس إذن مسلماً ـ كما يظهر من الروايات ـ . قيل إنه ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات وقيل بخمس ، ويروى أنه قال « قبض [النبيّ] وأنا ابن عشر سنين » (٢) . وعن الواقدي أنه كان له عند موت النبي (ﷺ) ثلاث عشرة سنة (٣) . وعلى أية حال ، لم يجاوز ابن عبّاس سنّ البلوغ عند وفاة النبي (ﷺ) ، ومع هذا نسبت إليه مصادر القصص أحاديث تدلّ على تقدّم في السنّ والعلم في عصر النبي (ﷺ) ، متناسية سنة مولده وسنّه :

فقد روى عبد الملك بن هشام عن أبيه عن أبي صالح عن ابن عباس ، قال :

---

(١) ابن بطوطة : الرحلة (١٩٣٤) ج ١ ص ٧٨ — ٧٩ .
(٢) العسقلاني : الإصابة (مصر ١٩٣٩) ـ رقم الترجمة ٤٨٧١ .
(٣) المصدر نفسه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« ذكرتْ أحاديث القبور في مجلس فيه رسول الله (ﷺ) فتشعبت بنا فيها فنون كثيرة ، فلم يبق منّا أحد إلا حدّث حديثاً ، فأقبل رجلٌ من جهينة يسمّى جُفينة ...

فقال : يا رسول الله : إني أتيتك من ظهرانيّ قوم جربتهم فقست قلوبهم ، ومرنت على التكذيب جلودهم ، وإني أحببت الإسلام وأتيتك فيه راغباً ، فاشرح لي أعلامه وأدلني على فرائضه ، فقـــال رسول الله (ﷺ) : يا ابن عبّاس علّمه من ذلك ما يفقهه ؛ فمكث أياماً فتعلّم السنّة ، وقرأ سوراً من القرآن ، وحسن فقهه ... (١) »

فكيف يتسنّى لابن عبّاس معرفة الفرائض والسنّة وحفظ القرآن جميعاً ، وهو بعد في سنّ لم يتجاوز الثالثة عشرة من العمر ؟

لقد عاش ابن عبّاس حتّى أدرك الفتنة ، كما أدرك خلافة يزيد وثورة ابن الزبير في مكّة . ويظهر ابن عبّاس على مسرح الأحـــداث في ثورة ابن الزبير إذ يظهر خشيته من مبايعة ابن الزبير بالخلافة ، فيشدّد ابن الزبير عليه وعلى محمّد بن الحنفيّة لترددهما عن بيعته ويعاملهما بجفاء حتّى ينجدهما أصحاب ابن الحنفيّة من الكوفة ، فيخرجان إلى الطائف . ويبقى ابن عبّاس في الطائف بقيّة حياته ، ثم يتوفّى فيها سنة ٦٨ هـ (٢) .

لقد عاش ابن عبّاس في فترة حافلة بالأحداث السياسيّة والأدبيّة ، فترة نشاط الحياة الإسلاميّة وانتقالها المفاجئ من الحجاز إلى الأمصار ، فترة الفتوحات والازدهار التي شهدتها الأمصار الإسلاميّة . ويبدو أنّ ابن عبّاس قد شارك في كثير من أحداث العصر السياسيّة والأدبيّة فلم يقتصر نشاطه

---

(١) وهب بن منبه : التيجان : (١٣٤٧) ص ١٦٣ .

(٢) ابن سعد : الطبقات (ط ليدن) ١٣٢٢ ، ج ٥ ص ٧٣ — ٧٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على التفسير والتشريع ، بل لقد شارك حتى في الفتوحات وفي تولّي أمور الأمصار . فقد قيل إنه اشترك في غزاة افريقيا مع عبد الله بن أبي سرح سنة سبع وعشرين (١) . ولا بدّ أنّ ابن عبّاس قد غنم في هذا الفتح مالاً عظيماً ، إذ قيل إن فتح افريقيا كان من أعظم الفتوح « بلغ سهم الفارس فيه ثلاثة آلاف دينار » (١) .

ويبدو أنّ ابن عبّاس كان يعيش في ظلّ رخيّ من العيش ، فقد جاء في وصف دخوله البصرة أوّل مرّة ، قال أبو بكرة :

« قدم علينا ابن عبّاس البصرة وما في العرب مثله حشماً وعلماً وثياباً وجمالاً وكمالاً ... » (٢) .

وقد ولي ابن عبّاس البصرة بعد سنة ٣٥ هـ ، وكان قد حجّ في الناس بأمر عثمان (٣) ، ثم ولاّه عليّ البصرة ، ويقال إنه لم يزل عليها « حتّى قتل عليّ ، فاستخلف على البصرة عبد الله بن الحارث ومضى إلى الحجاز » (٤) لكنّ المراسلات التي جرت بين ابن عبّاس وعليّ (ع) ، تدلّ على غير هذا . ولقد تجنّبت أكثر المصادر الإسلاميّة الخوض في هذا الموضوع ، لأنّه يتّصل بمسألةٍ تكشف عنها الرسائل المتبادلة بين ابن عبّاس والإمام عليّ . وهي ما وصفته رسائل عليّ (ع) إلى ابن عبّاس في المخاطبة التاليـــة ، إذ يقول له :

« .... بلغني أنك جردْتَ الأرضَ ، فأخذتَ ما تحت قدميك ، وأكلتَ

(١) العسقلاني : الإصابة ، رقم الترجمة ٤٧١١ .
(٢) المصدر نفسه رقم الترجمة ٤٧٨١ .
(٣) المصدر نفسه . ويؤكد البـــلاذري الرواية عن الواقدي : أنساب الأشراف (S. Goitein) ج ٥ ص ٢٣ — ٢٤ .
(٤) المصدر نفسه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ما تحت يديك ، فارفع إليّ حسابك ، واعلم أنّ حساب الله أعظم من حساب الناس . والسلام » (١) .

ولا تكتفي المراسلة بذلك ، بل يحتدم الجدال بينهما ، خاصّة بعد أن يرحل ابن عبّاس عن البصرة إلى مكّة ، وهو يحمل المال معه ، ويكتب إلى عليّ قبل سفره بقوله :

« ابعثْ إلى عملك من أحببت فإني ظاعن عنه والسلام » (٢) . ويؤنّبه عليّ حتى يشتدّ الأمر بابن عبّاس فيهدّد في رسالة إليه :

« . . والله لئن لم تدعني من أساطيرك لأحملنّه إلى معاوية يقاتلك به » . فكفّ عنه عليّ (٣) .

لكن المصادر التي تترجم لابن عبّاس لا تكاد تعرض لهذا الأمر بشيء . وعلى أية حال ، يبدو أن ابن عبّاس قد غادر البصرة إلى الحجاز قبل وفاة عليّ . وقد انضمّ هناك فيما بعد إلى محمّد بن الحنفيّة في مكّة .

لقد عرف ابن عبّاس بغزارة علمه ، فقد قيل إنه أعلم الناس بأمور شتّى أهمّها « ما سبقه من حديث رسول الله (ﷺ) » . وكان إلى جانب ذلك يعدّ أعلم الناس بقضاء أبي بكر وعمر وعثمان . ووصف بأنه « لا أفقه في رأيٍ منه ، ولا أعلم بشعرٍ ولا عربيّة ولا بتفسير القرآن ولا بحساب ولا بفريضة منه . ولا أعلم بما مضى ولا أثقف رأياً فيما احتيج إليه منه ، ولقد كان يجلس يوماً ، ما يذكر فيه إلاّ الفقه ، ويوماً التأويل ، ويوماً

---

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٤٢ ، نهج البلاغة ج ٢ ص ٤٦ ـ نقلاً عن أحمد زكي صفوت : جمهرة رسائل العرب (١٩٣٧) ج ١ ص ٥٨٨ ـ ٥٨٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٨٩ .

(٣) المصدر نفسه ص ٥٩٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المغازي ، ويوماً الشعر ، ويوماً أيام العرب (١) » فابن عبّاس لم يتخصص بعلم دون غيره ، ومع ذلك فشهرته بتفسير القرآن ، كانت تغني عن كثير سواها ، وقد قال الحسن البصريّ « إن أول من عرّف في البصرة ابن عبّاس ، صعد المنبر فقرأ سورة البقرة ففسّرها حرفاً حرفاً ، وكان مثجّاً يسيل عزباً ... » (٢) وكان في البصرة يفتي في الناس ، لا سيّما في شهر رمضان (٣) . وقد عُدّ ابن عبّاس من أشهر خطباء عصره (٤) . وابن عبّاس ـ وهو من بني هاشم ـ كان لا بدّ أن تكون له يد في النشاط السياسي الذي ساد عصره بين الأمويين والهاشميين .

لكن هل كان ابن عبّاس ممّن يطمح إلى الخلافة أيضاً ؟

إن الروايات لا تصرّح بذلك عن ابن عبّاس نفسه ، لكنها تنقل لنا تعريضاً بهذا الأمر يأتي على لسان عمرو بن العاص ، إذ يقول مخاطباً ابن عبّاس :

« إن هذا الأمر الذي نحن وأنتم فيه ليس بأول أمر قاده البلاء . وقد بلغ الأمر منا ومنكم ما ترى ، وما أبقت لنا هذه الحرب حياءً ولا صبراً . ولسنا نقول ليت الحرب عادت ولكنّا نقول ليتها لم تكن كانت . فانظر فيما بقي بغير ما مضى ، فإنّك رأس هذا الأمر بعد عليّ . وإنما هو أميرٌ مطاع ، ومأمور مطيع ، ومشاوَر مأمون ، وأنت هو » (٥) .

---

(١) ابن سعد : الطبقات (ط ١٩٥٧) ج ٢ ص ٣٦٨ .

(٢) الجاحظ : البيان (ط هرون) ج ١ ص ٨٤ ، ص ١٥٦ ، ابن سعد الطبقات : ج ٢ ص ٣٦٧ .

(٣) العسقلاني : الإصابة ، رقم ٤٧٨١ .

(٤) الجاحظ : البيان ج ١ ص ٣٣٠ ، ٣٣١ .

(٥) الجاحظ : المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٩٨ .
ولقد جرت مبادلات في القول بينهما يفصل الجاحظ في ذكرها في البيان والتبيين ، انظر أيضاً ج ٢ ص ٣٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ونجد ابن عبّاس مخلصاً للدعوة الهاشمية التي يقوم على رأسها عليّ بن أبي طالب وأبناؤه من بعده . فهو يذهب بسفارة للزبير عن عليّ ، وهو صريح في مواقفه من الخلفاء الأمويين تجاه حقّ الهاشميين (١) . ويبدو لنا من الرسائل التي تبودلت بينه وبين معاوية أنّ الأخير كان يقيم وزناً كبيراً لما يصدر عن ابن عبّاس وكان معاوية يقصد إلى إثارته في رسائله ليتعرف على رأي العلويين في أمر الخلافة وتتّسم الرسائل المتبادلة بين الطرفين بطابع المحاجّة السياسيّة التى تطمح إلى الخلافة وتؤيدها بالحجج الشرعيّة . لكن ابن عبّاس لا يدّعي حقّ الأمر لنفسه بل هو يدافع عن حقّ البيت الهاشمي كافّة (٢) .

ونجد ابن عبّاس كذلك صريحاً في مواجهة ابن الزبير مع محمد ابن الحنفيّة ، ومع ذلك لا يرد اسمه فيمن كان يصلح إلى الخلافة أو الحكم .

ولعلّ بروز شخصيّة ابن عبّاس كراوية ومفسّر للقرآن ، في أوّل الإسلام لا سيما وهو من بيت النبوّة ، ـ بل من البيت العبّاسي بالذات إذ يُعدّ جدّ العباسيين ـ كان من الأسباب التي ساعدت على استغلال شخصيته من قبل المصادر العلويّة والعبّاسيّة ، لا سيّما في مجالي التفسير القرآني والقصص .

ولو اختبرنا المادّة التى تنسب إليه من قبل المصادر المتأخرة لبلغت المادّة القصصيّة منها وحدها شأواً عظيماً .

فهل كتب ابن عبّاس حقيقة شيئاً من هذه المادّة ؟

تشير الروايات الإسلاميّة التي بين أيدينا مراراً إلى أنّ ابن عبّاس كان ميّالاً إلى الكتابة والتدوين ، نقلاً عن الصحابة ، وعمّن شهد النبيّ (ﷺ)

(١) الجاحظ : البيان (ط هرون) ج ٤ ص ٧١ .

(٢) أحمد زكي صفوت : جمهرة رسائل العرب ج ١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

خاصّة . ويبدو أنه كتب شيئاً من مغازي النبي أو السيرة نقلاً عن أصحابه فقد روي عن عبيد الله بن عليّ عن جدّته سلمى قالت: « رأيت عبد الله ابن عبّاس معه ألواح يكتب عليها عن أبي رافع شيئاً من فعل رسول الله (ﷺ) . . . » (١) .

وقيل إن ابن عبّاس « كان يأتي أبا رافع فيقول : ما صنع النبي (ﷺ) يوم كذا ومع ابن عبّاس من يكتب ما يقول ... » (٢)

ويوصف ابن عبّاس بالمواظبة والصبر على تلقف الأمور من أصحابها حتّى كان يأتي بعض أصحاب النبي ، فإذا وجده نائماً بقي ابن عبّاس ينتظر في بابه حتى يلقاه ، فيأخذ عنه حديثاً أو جواباً عن مسألة عن النبي (ﷺ) . وكان لابن عبّاس غلام يلازمه ويكتب له ما يستحسنه ابن عبّاس من أقوال الناس وأحاديثهم ـ على ما يقال ـ (٣) .

ولقد وصفت مجموعة الكتب التي خلفها ابن عبّاس انها « حمل بعير » أو « عدل بعير » ، فقد روي عن « موسى بن عقبة » وهو من مشهوري رواة المغازي الأوائل في الإسلام قال :

« وضع عندنا كريب (٤) حمل بعير أو عدل بعير من كتب ابن عبّاس ، قال فكان علي بن عبد الله بن عبّاس إذا أراد الكتاب كتب إليه : ابعث إليّ بصحيفة كذا وكذا قال فينسخها فيبعث إليه بإحداهما . . » (٥) .

---

(١) ابن سعد : الطبقات (١٩٥٧) ج ٢ ص ٣٧١ .
(٢) العسقلاني : الإصابة رقم ٤٧٨١ .
(٣) الجاحظ : البيان ج ٢ ص ٦٧ .
(٤) هو كريب بن أبي مسلم مولى عبد الله بن عباس توفي في المدينة سنة ٩٨، وقيل كان ثقة حسن الحديث [ابن سعد : الطبقات ج ٥ ص ٢١٦] .
(٥) ابن سعد (ط ليدن) ج ٥ ص ٢١٦ وانظر كتاب هوروفتس : المغازي الأولى ومؤلفوها (ت حسين نصار) سنة ١٩٤٨ ص ٧٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وإلى جانب هذا فقد كتب بعض الرواة عن ابن عبّاس كتباً بأكملها ، فمن الكتب المؤلّفة في نزول القرآن التي يذكرها ابن النديم (كتاب عكرمة عن ابن عبّاس) و (كتاب أحكام القرآن للكلبي رواه عن ابن عبّاس) (١) . لكن الروايات لا تكاد تشير إلى عناية ابن عبّاس بكتابة القصص والإسرائيليات التي نقلت عنه في المصادر المتأخرة . ولا شكّ أنّ عناية ابن عبّاس بتفسير القرآن كانت من العوامل التي ساعدت على بروز شخصيته في المجال القصصي لا سيما في قصص الأنبياء وتاريخ الأمم السالفة (٢) . ففي المصادر الإسلاميّة كثيراً ما يستمان بروايات ابن عبّاس لملء الفراغ الذي يولّده تساؤل الناس حول الأمم الغابرة بتفاصيل لم توجد في القرآن نفسه . ومن أمثلة ما رواه الجاحظ عن ابن عبّاس بواسطة الكلبي أو غيره ، قال :

« قال ابن عبّاس (رحمه الله) في تعظيم شأن عصا موسى عليه السلام : الدابّة ينشقّ عنها الصفا ، معها عصا موسى وخاتم سليمان ، تمسح المؤمن بالعصا وتختم الكافر بالخاتم . . » (٣) .

وعن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عبّاس :

« إن الشجرة التي نودي منها موسى عليه السلام عوسج ، وإنّه نودي من جوف العوسج ، وإنّ عصاه كانت من آس الجنّة ، وإنها كانت من العود الذي في وسط الورقة (كذا !) ، وكان طولها طول موسى عليه السلام وقالوا : من العُلّيق . . » (٤) .

---

(١) ابن النديم : الفهرست (القاهرة) ص ٦٣ : ونعلّ هذا هو مصدر روايات ابن الكلبي عن أبيه عن عبادات الجاهلية وتأريخها [انظر البيان والتبيين ج ١ ص ١٢٣ ج ٣ ص ١٢٢] .

(٢) انظر روايات الدينوري : الأخبار الطوال (تراثنا ١٩٥٩) ص ٢٤ وكتب التاريخ الإسلامي الأخرى .

(٣) الجاحظ : البيان ج ٣ ص ١١٣ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٢٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتبدو الروايات القصصيّة الإسلاميّة أحياناً وكأنها تخلط في منطق الأحداث ويسودها طابع السذاجة لأنها تلتفت إلى عنصر المبالغة فتهمل عنصر التدرج المنطقي . فقد نسبت بعض كتب التاريخ المتأخرة روايات إلى أصحاب النبيّ (ﷺ) ، أو التابعين لكي توثق من شأن الرواية التي تنقلها دون أي تمييز بين المقبول والمرفوض في المنقل . ومن ذلك روايات تنسب إلى ابن عبّاس تتصل بمعاني الإسلام والنبوّة . فقد قيل إنّ نبيّاً ظهر في الجزيرة قبل النبي محمد (ﷺ) ، اسمه خالد بن سنان العبسي ، كانت له معجزات . وظهر في مكّة والمدينة وادّعى أنّه سيموت ثم يبعث ويخبرهم عن أمور كثيرة . فلم يتبع قومه تعليماته التي أشار بها عليهم ، إذ طلب إليهم أن ينبشوا قبره . وقال ابن عبّاس ، معلّقاً : إن النبي (ﷺ) قال : لو نبشوه لأخبرهم بشأني وشأن هذه الأمّة . وانّ ابنة خالد سمعت النبي (ﷺ) يقرأ سورة « قل هو الله أحد » ، فقالت إن أباها كان يقرأها أيضاً (١) .

فالقصّة لا تكتفي بالتنبّؤ بالإسلام وحسب ، وهذا أمر مألوف في أكثر القصص الإسلاميّة ، كتلك القصص المنسوبة إلى تميم الداري وكعب الأحبار.. الخ، أو تكتفي بتقارب معاني القرآن مع معاني الكتب المقدّسة بل تجعل الشبه يصل إلى حدّ التطابق ، حتى إنّ سورة من القرآن كان يقرأها خالد ابن سنان بنفسها .

ولا شكّ أنّ فكرة البعث المسيحيّة قد تأثرت بها الأفكار الإسلامية المتأخرة وأنها اتخذت عند المسلمين أشكالاً كان فيها شيء كبير من التحوير والتحريف . ولعلّ هذا التحريف أوضح ما يكون على أيدي القصّاص المسلمين الذين أربكتهم زحمة الأفكار التي تحيط بهم في المجتمع العبّاسي خاصّة ، الذي انفتح أمام عناصر ثقافات الأمم المختلفة ، ولقد وردت أشكال من

(١) المقدسي : البدء والتاريخ (هوار ١٩٠٣) ج ٣ ص ١٣٤ ـ ١٣٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذه الروايات الساذجة تتصل بعقيدة التناسخ ، إلاّ أنّ العلماء المسلمين المحقّقين يرفضونها بصورة صريحة ، كما فعل الجاحظ فيما نسب إلى ابن عبّاس في هذا الباب ، إذ يقول الجاحظ متسائلاً :

« وكيف حدّثوا عن ابن عبّاس في الفأر والقرد والخنزير والفيل والأرنب والعنكبوت والجرّي ، انهنّ كلهنّ مسوخ وكيف خُصّت هذه بالمسخ ، وهل يحلّ لنا أن نصدّق بهذا الحديث عن ابن عبّاس ؟ »(١) .

ولقد شكّ بعض المؤرخين المسلمين أيضاً في روايات نقلت عن ابن عبّاس ، لأنها منافية للعقل ، ولضعف إسنادها ، كما نقل ابن الأثير في تأريخه في روايات نقلت عن ابن عبّاس في الخلق وإن لم يعمّ ابن الأثير بشكّه على جميع تلك الروايات ، رغم كثرتها وتردد اسم ابن عبّاس في غالبيتها ، ويبدو لي أن ابن الأثير ربّما شمّ من بعضها رائحة الأساطير التي لا تتفق وروح الإسلام ـ لا سيما وهي تنتهي إلى النبي نفسه ـ ولذلك وقف منها موقف المرتاب ، فقال :

« قلت وروى أبو جعفر ههنا حديثاً طويلاً عدّة أوراق عن ابن عبّاس عن النبيّ (ﷺ) في خلق الشمس والقمر وسيرهما ، فإنّها على عجلتين ، لكلّ عجلة ثلاث مائة وستّون عروة ، يجرّها بعددها من الملائكة ، وإنّها يسقطان عن العجلتين فيغوصان في بحر بين السماء والأرض ، فذلك كسوفها ، ثم إن الملائكة يخرجونها فذلك تجليتها من الكسوف . وذكر الكواكب وسيرها وطلوع الشمس بعد مغربها ثم ذكر مدينة بالمغرب تسمّى جابرس وأخرى بالمشرق تسمّى جابلق ولكلّ واحدة منها عشرة آلاف باب يحرس كلّ باب منها عشرة آلاف رجل ، لا تعود الحراسة إليهم إلى يوم القيامة . .

---

(١) الجاحظ : كتاب الحيوان (ط هرون) ج ١ ص ٣٠٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وذكر يأجوج ومأجوج ومنسك وتاريس إلى أشياء أخر لا حاجة إلى ذكرها فأعرضت عنها لمنافاتها العقول . ولو صحّ إسنادها لذكرناها وقلنا بها . ولكن الحديث غير صحيح ، ومثل هذا الأمر العظيم لا يجوز أن يسطّر في الكتب بمثل هذا الإسناد الضعيف ... (١)

* * *

وعلى هذا فابن عبّاس لا يشذّ عن بقيّة الرواة الأوائل المعروفين فيما يتمتّع به من منزلة عند الرواة المسلمين . وما يطلقونه عليه من ألقاب تذكّرنا بالألقاب التي كانت تطلق على تميم الداري وكعب الأحبار وأبيّ بن كعب وأمثالهم ، فقد نسب إلى أبيّ بن كعب حديث يصف فيه ابن عبّاس بقوله : « هذا يكون حبر هذه الأمّة ، أوتي عقلاً وفهماً وقد دعا له رسول الله (ﷺ) أن يفقهه في الدين » (٢) .

وروي عن عكرمة أنه قال « قال كعب الأحبار : مولاك ربّاني هذه الأمّة وهو أعلم من مات ومن عاش » (٣) .

وقد وصف ابنُ عبّاس من قبل جماعة كبيرة بأنه (ربّاني هذه الأمّة) (٤) كما وصف تميم الداري من قبل بأنه (راهب الأمّة) (٥) . ولقب ابن عبّاس أيضاً بالحبر والبحر (٦) ... الخ وقد تشير هذه الألقاب إلى نمط العلم الذي

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التأريخ (صادر سنة ١٩٦٥) ج ١ ص ٢١ ـ ٢٢ .

(٢) ابن سعد (١٩٥٧) ج ٢ ص ٣٧٠ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه ص ٣٦٨ ، تنسب هذه القولة إلى محمد بن الحنفية وتنسب إلى سواه .

(٥) تراجع الصفحات السابقة من هذا المقال .

(٦) العسقلاني : الإصابة رقم الترجمة ٤٧٨١ . الرازي : الجرح والتعديل (١٩٥٣) ج ٢ ص ١١٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عرف به ابن عبّاس لا سيّما أن هذه الأوصاف تطلق عند المسلمين ، غالباً ، على علماء أهل الكتاب خاصّة .

يظهر لنا ممّا تقدّم عن هؤلاء الرواة أنهم جميعاً كانوا يعرفون القراءة والكتابة ، وأنهم استعانوا بها لتدوين الأحاديث والأقوال . وإن بعضهم خلف مقداراً كبيراً من الصحف المكتوبة ، لكن غلب على الروات المنقولة عنهم – مع كلّ ذلك – طابع النقل الشفوي . وذلك لأهميّة الرواية الشفوية في المجتمع الإسلامي في نقل ودراسة جميع العلوم الإسلامية حتى بعد عصر التدوين ونشاطه . إذ بقيت الرواية الشفوية هي الغالبة على مناهج البحث والتأليف عند العلماء المسلمين . ولذلك فإن توثيق الرواية يتأتى من إسنادها إلى المتقدمين من أوائل المسلمين ، بل إلى النبي (ﷺ) نفسه ، إذا أمكن ، وهذا الأمر يفسّر ظاهرة استعانة القصّاص المتأخرين بالأسانيد الإسلاميّة المعروفة في علم الحديث لتوثيق رواياتهم في نظر المجتمع الإسلامي . وهذا هو ما قام به قصّاص مشهورون كمقاتل بن سليمان وابن الكلبي وغيرهما .

وظلّت هذه المادّة القصصيّة تنمو وتتضخم بمرور الزمن كلّما دعت الحاجة إلى ذلك ، وكان القصّاص يزينون قصصهم بإسنادها إلى مشاهير الرواة ، حتى من معاصريهم ؛ كما تبيّنه الرواية الطريفة التالية عن مقاتل بن سليمان :

روى الكلبي أنّه مرّ يوماً بمجلس مقاتل فسمعه يحدّث بحديث منقول عنه هو ، فوقف الكلبي فقال : « يا أبا الحجّاج ما حدّثك بهذا الحديث الذي ترويه عنّي قطّ .. » ودنا منه فقال : « يا أبا الحسن أنا الكلبي وما حدثتُ الحديث قطّ . » فقال : « اسكت يا أبا النضر فإنّ تزيين الحديث لنا إنما هو بالرجال »[1] .

(١) البغدادي : تاريخ بغداد ج ١٣ ص ١٦٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد أثار مقاتل سخط المحدّثين ، ومع ذلك نقلت المصادر الإسلاميّة أحاديثه الغريبة وشروحه المفصّلة (١) التي لا تختلف في أسلوبها أحياناً عن أسلوب ابن اسحاق في السيرة النبوية (٢) .

هذه جملة من القصّاص الذين انتقلت رواياتهم ، جيلاً عن جيل ، بالطريق الشفوي ، فانسمت وتضخمت ؛ وكلّما مرّ الزمن زيدت روايات متأخرة لا تعرف مصادرها بصورة دقيقة .

* * *

أمّا المصدر الثاني من مصادر القصص الإسلاميّة ، فهو المنقول عن مصادر مكتوبة . وسأتحدث عنها .

(جامعة الكويت) الدكتورة وديعة طه النجم

(١) انظر أمثلة في كتاب الجاحظ : الحيوان (ط عبد السلام هرون) ج ٧ ص ٢٠٤ .

(٢) انظر كتاب المقريزي : ضوء الساري ص ١٦٨ ـ ١٧١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net